مجلة المجمع العلمي

مجلة المجمع العلمي

الجزء الاول ـ المجلد السابع والخمسون

بغـــداد

١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

الحس التاريخي عند العرب
قبل الإســـلام

الدكتور جواد مطر الموسوي

رئيس جامعة واسط

الملخص :

الوعي بالتأريخ موجود عند الإنسان بالفطرة قبل التـــدوين ، فكـــان يقص على أولاده وأحفاده عصارة تجاربه وأفكاره والأحداث التي مرت به في حياته أو نقلها عن آبائه وأجداده ، كما كان ينقش بالكتابة والرسم على الجدران ليصور حياته اليومية .

وان الدلائل المادية والكتابية تشير إلى أن العرب قبل الإسلام كـــانوا يعون فكرة التأريخ ، وخير مثال ذلك النقوش الكثيرة التي عثر عليها فـــي مناطق متفرقة من شبه الجزيرة العربية واليمن القديم ، وقد سجلت الكثير من حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية والعسكرية ، كمـــا ان قـــصص الأيام ترسم صورة للتأريخ المحلي ، واشترك معه علم الأنساب الذي عانى مع قصص الأيام تسرب الأسطورة بين ثناياه ، لكن علم الأنـــساب اوجـــد التـــأريخ الاجتمـــاعي (Anthroplgy) . إن هـــذا الاهتمـــام بالتـــأريخ

(*) تتكـــون كلمـــة تـــاريخ (history) باللغـــة الانكليزيـــة مـــن (his story) و (her story) وتعني قصته وقـصتها ، اي ان التـــاريخ عبـــارة عـــن قـــصص لهذا وتلك.

قبل الإسلام يوضح التغيير الجذري الذي أحدثه الإسلام بربطه التأريخ بالأمة وعقيدتها ربطا محكما .

قد لا نخطئ إذا قلنا : إن الحس التاريخي موجود عند الإنسان بالفطرة قبل التدوين ؛ فمن الطبيعي انه كان يقص على أولاده ، وأحفاده عصارة تجاربه وأفكاره والأحداث التي مر بها في حياته أو نقلها عن آبائه وأجداده ، وفي اقل تقدير انه كان ينقش بالكتابة أو الرسم على الجدران ليصور الكثير من جوانب حياته اليومية ، ويسجل خضوعه لأشياء كثيرة لا يفهم وجودها ويخشاها ، وكانت هذه النقوش بدائية ، إلا أنها بكل تأكيد توحي بوجود شعور بالذات والمحيط والزمن الذي يفضي إلى الإحساس بالتأريخ .

وبما أن التاريخ موضوعه الإنسان والزمان ، فإن كل الدلائل المادية والكتابية تشير إلى أن للعرب قبل الإسلام حضارة ، ويشهد على ذلك كثرة المعطيات الآثارية في مناطق متفرقة من مواطن العرب ، منها : آثار دول اليمن القديم سبأ وقتبان ومعين وأوسان وأمير وحمير ، ودولة لحيان وديدان شمالي الحجاز ، ودول الأنباط وتدمر والغساسنة في بلاد الشام ، ودول ميسان والحضر والحيرة في العراق . وهذه الحضارة يقتضي وجودها الإحساس بالذات ، وهو إفراز من إفرازات التفكير الإنساني الموحد وتطوره ، وعلى الرغم من تعدد الآلهة والأصنام العربية بشقيها الأرضي والفلكي إلا أنها تشير بشكلها العام إلى التوحد الديني ، فهي ديانة وثنية هدفها التقرب إلى الله زلفى كما أشار القرآن الكريم[1] ، ثم إن الحج

---

[1] سورة الزمر ، رقم ٣٩ ، آية ٣ .

إلى الكعبة كان مظهرا من مظاهر التوحد العربي وهو أقدم ظاهرة في الشعائر الدينية القديمة ، والعرب أقدم امة عرفت الحج[٢] ، وكان سكان اليمن يؤدون مناسك الحج إلى معابدهم كما تذكر النقوش[٣] ، فضلا عن أن معظم الممارسات والطقوس الدينية متشابهة وتسير في نسق واحد عند عرب الشمال والجنوب ، فكانوا على حالة عالية من التدين فهم عميقو الاعتقاد ، وغايتهم من ذلك تفسير ما يحيط بهم على الأرض والسماء في محاولة للشعور بالذات وفهم العلاقة الجدلية بين الزمان والإنسان المتمثلة بالوعي التأريخي .

وهذا واضح في كل الوثائق المادية والكتابية والاخبارية التي نقلت قصص أيام العرب والأنساب العربية والنقوش، فقصص أيام العرب التي نقلها إلينا الاخباريون[٤] هي روايات شفوية قبلية ، قدمت وصفا وذكريات للمعارك الحربية التي تحدث بين القبائل نفسها أو مع الدول المجاورة فهي لا تعطي تصورا سكانيا ومكانيا واسعا عن العرب بوصفهم أمة ، لكنها ترسم صورة ضيقة تدخل في تاريخ المجموعة الذي نسميه (التاريخ القبائلي) وعند تجميع أجزاء هذه الصورة نجدها غير متناقضة

---

[٢] الحوت ، محمود ، المثيولوجيا عند العرب ، ط٢(بيروت: دار النهار، ١٩٧٩م) ص١٤٧ .

[٣] J.Wellhausewn , Reste Arabic hen Heidentums . 2ed . (Berline . 1961).S.84

[٤] للتفصيل ينظر : محمد المولى وآخرون ، أيام العرب في الجاهلية ، (القاهرة : دار إحياء التراث العربي ، د . ت) .

وتعطي تصورا واضحا عن الذات الحضارية في إطارها القبلي إلا أنها تصب في الإطار العربي .

ومع أن وصف (الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري)[٥] للمادة التأريخية في قصص الأيام بأنها مرتبكة من الناحية الزمنية وفيها عصبية ، وتعطي وجهة نظر واحدة ، وينقصها التآلف والسبك الجيد ، إلا أنه يمكن تصنيفها مكانيا بالمقارنة مع المعطيات الأخرى وقد حاول (ابن الاثير)[٦] أن يضع هذه القصص في تسلسل تأريخي ثم إنها تجسد البطل في التاريخ مغلفا بهالة من الأساطير ، وهذا يشير إلى وجود دلائل عن حس تاريخي قبلي مغطى بقالب أسطوري وليس حسا واقعيا واسعا، وقد أشار (ابن حبيب)[٧] إلى أن كل طائفة من العرب تؤرخ بالحادثات المشهورة فيها ولم يكن لهم تاريخ يجمعهم . وتأتي أهمية قصص (الأيام) من أسلوبها المباشر الذي يفيض بالحيوية ، وأنه واقعي يختلط فيه النثر والشعر ، وهو أسلوب له اثر في بداية علم التاريخ عند العرب ولاسيما في الأوساط القبلية ، فضلا عن احتواء هذه القصص بعض الحقائق التاريخية[٨] لذلك جعلها

---

[٥] بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، (بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، د.ت) ، ص١٧.

[٦] الكامل في التاريخ ، (القاهرة : مطبعة بولاق ، د.ت) ج١ ، ص٢٠٩-٢٢٥ .

[٧] المحبر ، تحقيق : ايلزة شتيتر ، (حيدر آباد : مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٤٢ م) ، ص٥-٨

[٨] الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ ، ص١٧ .

(Anthropology) حتما[١١] ، ومهَّد لفكرة قبول التاريخ العالمي لكن مع ذلك تبقى الصورة مرتبكة في كثير من جوانبها لان المعلومات النسبية بقيت شفهية في أغلبها وتحوم حولها الشكوك .

إلا أن الكشف عن النقوش التي كتبها الإنسان العربي بقصد أو من دون قصد تشير إلى وعي بالذات يفضي إلى وعي تأريخي ، فهي كتبت لغرض الإعلان والتخليد على حجر صلد أو صلب في قوالب من البرونز لكي تعمر طويلا ، وخير مثال نقوش الاعتراف في اليمن القديم ، ولذلك فإن اكتشاف هذه النقوش أدى إلى سد كثير من الثغرات وبعضها بنى أساسا جديدا لحدث لم يكن معروفا ؛ فنجد في نقش النصر المرمز (GI 1000) مثلا واضحا في تخليد الحملات العسكرية للملك اليمني (كرب أيل وتر) سنة (٦١٠ق.م) الذي يدل على وعي بالذات وشعور تاريخي ، وهناك نقوش متنوعة سياسية وقانونية واقتصادية ودينية تسجل فعاليات الإنسان ، وتخلد أعماله العامة وتدلل على الإحساس بالتأريخ وتوحي بوجود الفكرة التأريخية نتيجة ما يعيه الإنسان العربي بالذات الحضارية ، فهي تعبر بما لا يقبل الشك عن تسجيل التاريخ لذلك تعد وثائق وشواهد أصيلة تقدم الى المؤرخ مادة تاريخية عن تلك الأيام كما كتبها أصحابها والنقوش هي التي أحبطت الإدعاءات الباطلة بأعجمية لفظة (التاريخ) إذ أثبتت أن جذر اللفظة عربي محض .

---

[١١] عز الدين إسماعيل ، المكونات الأولى للثقافة ، (بغداد : وزارة الإعلام، ١٩٧٢م) ، ص١٦٥ .

أما النقوش فهي مكتوبة بحروف غير منظمة عثر عليها في مواضع متعددة من شبه الجزيرة العربية وتدل دراستها الاولية على أنها من مراحل الخط البدائي الأبجدي ، وأن حروفها لم تتقيد بشكل واحد ، وكتبها الأعراب بما تيسر لهم من سكين أو حجر حاد الرأس أو أية أداة أخرى ، وقد قصدوا من وراء ذلك تسجيل ذكرياتهم وهم في طريق السفر ، وأكثرها أسماء لكتابها والمواضع التي حلوا بها هم وقبائلهم ، فهي من هذه الناحية لها أهمية كبيرة قياسا بالمؤرخ الذي يريد البحث عن أسماء الأعلام القديمة للرجال والقبائل والمواضع[١٤] .

ويذكر عن عرب الشمال أن ملكة تدمر الزباء (زنوبيا) قامت بجمع تاريخ الشرق وصنفت كتابا في تاريخ مصر[١٥] ، كما كانت الأديرة المنتشرة في الحيرة تحتفظ بسجلات وكتب تحتوي على أخبارهم وأنسابهم وديانتهم ، وتلقي الضوء على طبيعة المرحلة التاريخية[١٦] ، كما كانت لهم نقوش حاول (ابن الكلبي) قراءة بعضها لاستخلاص أمور تاريخية منها[١٧] . وكل هذا يشير

---

[١٤] جواد علي ، المدونات العربية قبل الإسلام ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج١٢، ج٣ (بغداد : المجمع العلمي ، ١٩٨٠م) ، ص١٩٧ .

[١٥] فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، (بيروت : دار الثقافة ، د.ت)، ص٤٣٨.

[١٦] منذر البكر ، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، (البصرة : مطبعة الجامعة ، ١٩٩٢م) ، ص٣٦-٣٧ .

[١٧] شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩م) ، ج١، ص٥٦ .

وأهل المحامد والفضائل)[٢٢] و (ان القارئ إذا تأمل ما فيه لا يزال متنقلا من فائدة إلى فائدة ، منصرفا بين جد وهزل وآثار وأخبار وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة ، وأخبارها المأثورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام يجمل بالمتأدبين معرفتهم وتحتاج الأحداث إلى دراستها)[٢٣] ، وهذا يعني ان التأريخ كان شديد الاتصال بحركة الامة العربية ، فقد واكب مسيرتها منذ قبل الإسلام وبعده ، وعزز أواصر الوحدة بين أفرادها ، فنال من العرب كل الاهتمام والعناية .

وكان العرب قبل الإسلام يؤرخون بتقويمين : شمسي يسيرون عليه بالدرجة الأولى في الزراعة ، وقمري يعتمدون فيه على أمور حياتهم الأخرى . والتقويم الأول يعتمد الشمس والتقويم الثاني يعتمد رؤية الهلال وتحولات القمر ، وهو أوضح وأسهل لسواد الناس[٢٤] . وكانت العرب قبل الإسلام تؤرخ بأحداث مهمة متعددة ، فقد كان بنو إبراهيم يؤرخون من نار إبراهيم إلى بنيان البيت ، ثم أرخ بنو إسماعيل من بنيان البيت حتى تفرقوا ، فكان كلما خرج قوم من تهامة إلى النجود أرخوا بمخرجهم .. وأرخوا من موت كعب بن لؤي إلى عام الفيل ، ثم كان التاريخ من عام

---

[٢٢] الهمذاني ، محمد بن عبد الملك ، تكملة تاريخ الطبري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢(القاهرة : دار المعارف ، د.ت) ، ج١١ ، ص١٨٧ .

[٢٣] الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق : احمد الشنقيط ، (القاهرة : مطبعة التقدم ، د.ت) ، ج١، ص٣ .

[٢٤] جواد علي ، المدونات العربية ، ص٢١٧ .

الفيل حتى أرخ الخليفة عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ بالهجرة النبوية المباركة[٢٥] .

وأشار (المسعودي)[٢٦] إلى أن أهل حمير كانوا يؤرخون بملوكهم السالفة من التبابعة وغيرهم ، وقد قدمت لنا النقوش اليمنية المؤرخة مادة مهمة في الوقوف على أسلوب التاريخ عند عرب الجنوب قبل الإسلام ، وفي أسماء الشهور عندهم ، فكان لهم تقويم ثابت منذ سنة ١١٥ق.م (أو ما بين ١١٥-١٠٧ ق.م) وقد اتخذ هذا التقويم الثابت دليلا على وعيهم أهمية التاريخ ، واستدلالا على وجود الفكرة التاريخية ووضوحها لديهم ، وهي دلائل التقدم والحضارة بلا شك[٢٧] ، كما كانوا يؤرخون برجال مشهورين من رجالهم ينتسبون إلى اسر معروفة مثل (حيوم بن ابي كرب بن كبر خلل) أي كبير أسرة خليل ، وأرخوا بأسرة حذمت[٢٨] .

أما عرب الشمال فقد روى (المسعودي)[٢٩] ان قدوم أصحاب الفيل الى مكة كان في سنة ثمنمائة واثنتين وثمانين للاسكندر (أي في التقويم السلوقي الذي يبدأ سنة ٣١١ ق.م) الموافقة سنة ست عشرة ومئتين في تاريخ العرب ، ويكون مبدأ تقويم العرب سنة ٣٥٥م ، وإذا جارينا رواية (المسعودي) في قوله : (تاريخ العرب) أي جود تقويم للعرب فان لذلك ،

---

[٢٥] ابن حبيب ، المحبر ، ص٧-٨ .

[٢٦] التنبيه والإشراف ، (بيروت ، ١٩٦٥م) ، ص١٧٢ .

[٢٧] جواد علي ، المدونات العربية ، ص٢١٢ .

[٢٨] CIH 83 .RES . 3909.

[٢٩] مروج الذهب ، ج٢ ، ص٥٤ .

كما يقول (جواد علي)[٣٠] ، أهمية كبيرة عند المؤرخ ، لأنه يشير إلى وجود تقويم لا لأهل مكة حسب ، وانما للعرب عامة ، ووجود تقويم عربي يدل على تقدم كبير في علم التأريخ .

وأرخ أهل بلاد الشام بتقويم بصرى يبدأ سنة ١٠٥ ميلادية وهي سنة استيلاء الرومان على مدينة بصرى ، ومثال ذلك التقويم المنقوش على شاهد قبر امرئ القيس في النمارة سنة ٢٢٣ وهي تقابل سنة ٣٢٨ الميلادية[٣١] .

ومن هذا كله يتوضح أن للعرب قبل الإسلام احساسا بما يحيط بهم ووعيا لذاتهم وتاريخهم ، وقد أشارت كل الدلائل المادية والكتابية إلى ذلك منها آثار دول اليمن القديم ودول بلاد الشام والعراق قبل الإسلام ؛ فقصص الأيام العربية ترسم صورة تأريخ المجموعة (التأريخ المحلي) .

والمادة التأريخية الثانية علم الأنساب الذي اشترك مع قصص أيام العرب في عدد من الاشكالات منها تسرب الأسطورة بين ثناياه وظهور البطل التاريخي ، وقد اوجد علم الأنساب التاريخ الاجتماعي (Anthropology) ومهد لقبول فكرة التاريخ المحلي . أما المادة التأريخية الأخرى فهي النقوش التي هي التعبير المادي عن وعي الإنسان العربي لفكرة التأريخ حيث نقشت على الحجر الصلد او صبت في قوالب

---

[٣٠] التاريخ عند العرب ما قبل الإسلام ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج٣٣ ، (بغداد : المجمع العلمي، ١٩٨٢) ، ص٧ .

[٣١] المصدر نفسه ، ص٨ .